

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧ - سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

سميت به ، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً ، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة (القتال) ، لدالاتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم ، وما يترتب على انقتال وكثرة فوائده - قاله المهايى - .

وهي مدنية . وحكى النسفى قولاً غريباً ، أنها مكية . وآيها ثمان وثلاثون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ)

«الَّذِينَ كَفَرُوا» أى: جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره «وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى: أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبه بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. «أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ» أى جعلها على غير هدى ورشاد.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم . وقوله «وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» أى بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، إذ يفيد بمطغه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» أى الثابت بالواقع ونفس الأمر . «كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» أى ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ، ما كان منهم من الكفر والمعاصي ، لرجوعهم عنها وتوبتهم «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» أى حالهم وشأنهم ، وعملهم في الدنيا بالتأييد والتوفيق . قال الشهاب : (البال) يكون بمعنى الحال والشأن . وقد يخص بالشأن العظيم ، كقوله ﷺ (١) (كل أمر ذي بال) . ويكون بمعنى الخاطر القلبي ، ويتجاوز به عن القلب . ولوفر به

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٩ - كتاب النكاح ، ١٩ - باب خطبة النكاح ، حديث

١٨٩٤ (طبعنا) .

هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسرهُ السفاقي بالفكر ، لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله .

وقال ابن جرير^(١) : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لا يعرف منه فعل ، ولا تكاد العرب تجمعهُ إلا في ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : (بالات) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَلِكَ بَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ)

« ذَلِكَ » أى المذكور من فعله تعالى بالفريقين مافعله كأن « بَأَنَّ الَّذِينَ » أى بسبب أن الذين « كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ » أى يشبه لهم الأشباه ، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالا . قال الزمخشري : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار . واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أوفى أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بَعْضًا ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ)

« فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ » لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً للجهاد المشركين الساعين فى الأرض بالفساد ، الصادين عن منهج الرشاد ، وبعثاً على الصدق

(١) انظر الصفحة رقم ٣٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في قتالهم ، كسحاً لعقبة باطلهم ، عملاً بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتميزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة . ولذا قال أبو السعود: الفاء لترتيب مافي حيزها من الأمر على ما قبلها . فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم ، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام . أى : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم في الحاربة ، فضرب الرقاب . وأصله : فاضربوا الرقاب ضرباً . فحذف الفعل ، وقدم المصدر ، وأنبأ منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيده بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه « حَتَّى إِذَا أَغْلَبْتُمُوهُمْ » أى غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبتهم منهم ، فصاروا في أيديكم أسرى « فَشُدُّوا الْوُثَاقَ » بفتح الواو ، وقرئ بكسرهما . وهو ما يوثق به ، أى يربط ويشد ، كالقيود والحبل . أى فأمسكوكم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم « فَأَمَّا مَنَّمَا بَعُدَ وَإِمَّا فِدَاءٌ » أى فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سببهم ، وإما تفدون فداءً ، فتطلقونهم بعوض مال ، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون ، أو يتخلص أسيرهم .

قال المهايى : ولم يذكر القتل اكتفاء بما مر من قوله ^(١) (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَأَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ) وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال . ولم يذكر الاسترقاق ، لأنه فى معنى استدامة الأسر ، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية . ولا تزالوا كذلك « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أى : إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى . استعير لآلات الحرب التى لا تقوم إلا بها ، استعارة تصريحية أو مكنية ، بتشبيهها بإنسان يحمل حملاً على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخميلاً . وقد جاء ذكرها فى قول الأعشى ^(٢) :

وأعددت للحرب أوزارها : رمحاً طويلاً وخيلاً ذكوراً

(١) [٨ / الأنفال / ٦٧] . (٢) البيت الرابع والأربعون من قصيدته التى مطلعها :

غَشِيَتْ لِلنَّبِيِّ لِبَاسٌ خَدُورًا وَطَالَبَتْهَا وَنَذَرَتِ الْغُدُورًا

يدح بها هوزة بن على الحنقى .

وقيل : أوزارها آثامها . يعنى : حتى يترك أهل الحرب - وهم المشركون - شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكليل) : فى الآية بيان كيفية الجهاد .

الثانى - للسلف قولان فى أن الآية : منسوخة أو محكمة .

فروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى أنها منسوخة بقوله تعالى (١) (فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروى عن ابن عمرو وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست بمنسوخة ، وأنه لا يجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

وجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بady بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداها وهى المطلقة .

ومدرك الثانى أن الأمر بقتلهم المجل فى آيات ، محمول على الفصل فى مثل هذه الآية . أى إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصالحة فى القتل ، فتلك من باب آخر .

وتم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لا ينافى جواز القتل ، لعله من آيات آخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذى أختره . وإذا دار الأمر فى الآى بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لا يتعارض قول من قال بالنسخ مع الذهاب إلى الإحكام ، لما قدمناه فى مقدمة التفسير ، من تغاير اصطلاح السلف والأصوليين فى النسخ .

(١) [٩ / التوبة / ٥] .

ثم رأيت ابن جرير ^(١) سبقني في ترجيح ذلك ، وعبارته :
والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة
الناسخ والمنسوخ ، أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ
الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى
القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم في
آية أخرى ، وذلك قوله تعالى ^(٢) (فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) الآية . بل
ذلك كذلك ، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب ،
فيقتل بعضاً ، ويفادى ببعض ، ويعين على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبي معيط ،
وقد أتى به أسيراً . وقتل بنى قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سلباً ، وهو
على فدائهم والمن عليهم قادر . وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر . ومن
على ثمامة بن أثال الحنفي ، وهو أسير في يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب ،
من لدن أذن الله له بحربهم ، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه
في هذه الآية المن والفداء في الأسارى ، نخص ذكرها فيها ، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه
بذلك ، قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرراً ، فأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر في
هذه الآية من المن والفداء ، ماله فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .
الثالث - من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ،
وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء . والقول بإبادة خضرأهم من غير
تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبي صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم
مشركون ، فتفهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٥] .

وبالجملة، فالذى عول عليه الأئمة المحققون رضى الله عنهم، أن الأمير يَحْيَى، بعد الظفر تحييز مصلحة لا شهوة في الأسراء المقاتلين، بين قتل واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر، فلم يجوز له ترك ما فيه الحظ، كولى اليتيم، لأن كل خصلة من هذه الحصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى. فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين، فقتله أصلح. ومنهم الضعيف ذو المال الكثير، ففداؤه أصلح. ومنهم حسن الرأى في المسلمين، يرجى إسلامه، فالنّ عليه أولى. ومن ينفع بخدمته، ويؤمن شرّه، استرقاقه أصلح - كما في (شرح الإقناع) - .

الرابع - تُسَنُّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغت الدعوة، قطعاً لحجته. ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة، لحديث^(١) بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب قال: كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أمره بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين. وقال: إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم - رواه مسلم - .

وقيد الإمام ابن القيم وجوب الدعوة واستجباؤها، بما إذا قصد هم المسلمون. أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة، دفعاً عن نفوسهم وحریمهم وأمرُ الجهاد موكل إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدو، ونكايتهم وقربهم وبعدهم - كما في (شرح الإقناع) - .

وقوله تعالى « ذَلِكْ » خبر لمحدوف. أى الأمر ذلك. أو مفعول لمقدّر « وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ » أى: لا نتقم منهم بعقوبة عاجلة، وكفاكم ذلك كله. « وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَاْ »

(١) أخرجه مسلم في: ٣٢ - كتاب الجهاد، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ « أَى لِيُخْتَبَرُ كَمْ بِهِمْ ، فَيَعْلَمُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ فَيُثِيبَهُمْ ، وَيَلُوِّهَ بِكُمْ ، فَيُعَاقِبُ بِأَيْدِيكُمْ مِنْ شَاءَ مِنْهُمْ ، حَتَّى يَنْيِبَ إِلَى الْحَقِّ . « وَالَّذِينَ قُتِلُوا » أَى اسْتَشْهَدُوا .
وَقَرِئَ (قَاتِلُوا) « فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[٦] (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ)

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ » أَى بَيِّنَهَا لَهُمْ فى كثير من آياته ، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » أَى الظفر والتسكين فى الأرض ، وإرث ديار العدو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُجُوهُ وَأَصْلَحَ أَعْمَلَهُمْ)

[٩] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُجُوهُ » أَى خزيًا وشقاء . وأصله من السقوط على الوجه ، كالسكب . « وَأَصْلَحَ أَعْمَلَهُمْ » أَى جعلها على غير هدى واستقامة . « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ » أَى من الحق ، وشايعوا ما ألقوه من الباطل . « فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ » كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المكذبة رسلها ، الرادة لنصائحها . « دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى ما اختص بهم ، وكان لهم . يقال : دمره بمعنى أهلكه . ودمر عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفس . فالثانى أبلغ ، لما فيه من العموم ، لجعل مفعوله نسباً منسياً ، فيتناول نفسه وكل ما يختص به . والإتيان بـ (على) لتضمنه معنى (أطبق عليه) أى أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هم الهلاك عليهم . « وَلِلْكَافِرِينَ » يعنى المكذبين رسول الله ﷺ « أَمْثَلُهَا » أى أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[١٢] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » أى لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم . « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » أى غير مفكرين في المعاد ، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح ، فلا هم لهم إلا الاعتلاف دون غيره . « وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى مأواهم بعد مماتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكَايْنِ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

[١٤] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِّنْ رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

« وَكَايْنِ » أى : وكم « مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ » يعنى مكة ، على حذف مضاف « أَهْلَكَنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِّنْ رَبِّهِ » أى على برهان وحجة وبيان من أمر ربه ، والعلم بوحدانيته ، فهو يعبد على بصيرة منه . « كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ » أى فأراه إياه الشيطان حسناً ، فهو مقيم عليه . « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ » أى متغير الريح « وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » أى من القذى ، وما يوجد فى عسل الدنيا « وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » أى من فرط حرارته .

لطيفة :

(مَثَلُ الْجَنَّةِ) مبتدأ خبره (كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ) بتقدير حرف إنكار ومضاف . أى :
أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ،
وإن كان في صورة الإثبات ، هو في معنى الإنكار والنفي ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر
بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : (أَفَمَنْ كَانَ ...) الخ ، وليس في اللفظ
قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى . وثم أغارب آخر ، هذا أمثها .
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

« وَمِنْهُمْ » أى ومن هؤلاء الكفار « مَّنْ » أى كافر منافق « يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ »
إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ « أى من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه
من المتلو ، وتهاوناً به « مَاذَا قَالَ آنِفًا » أى الساعة . هل فيه هدى ؟ فإن بينوه لم يستفيدوا
منه شيئاً . « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه
« وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى آراءهم ، لا ما يدعو إليه البرهان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

« وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا » أى باتباع الحق ، والمشى مع الحجة « زَادَهُمْ هُدًى » أى بياناً
لحقيقة ما جاءهم « وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » أى أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم . أو بين
لهم ما يتقون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ)

« فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا » قال ابن كثير :
أى أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى (١) (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ) وكقوله جلّت عظمته (٢) (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ) وقوله سبحانه وتعالى (٣) (إِنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقوله جل وعلا (٤) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) . فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذى أكل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبيّ قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرى : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال . ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه نبيّ التوبة ، ونبيّ اللحمة ، والخاصر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبيّ .

روى البخارى (٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا - بالوسطى والى تليها - : بعثت أنا والساعة كهاتين .

« فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ » أى ذكرى ما قد ضيعوا وفرطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة . يعنى : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ، لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

(١) [٥٣ / النجم / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] .

(٣) [١٦ / النحل / ١] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٥) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٣٩ - باب قول النبي ﷺ (بعثت

أنا والساعة كهاتين) حديث رقم ٢٠٦٨

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٩] (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)

« فَاَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » قال ابن جرير^(١): أى فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته ، إلا الله الذى هو خالق الخلق ، ومالك كل شيء . يدين له بالربوبية كل ما دونه . والفاء فصيحة في جواب شرط معلوم ، مما مر من أول السورة إلى هنا ، من حال الفريقين .

قال السيوطي : وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر ، وإبطال التقليد في العقائد ، ومن قال بأن أول الواجبات ، المعرفة قبل الإقرار .

« وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » قال ابن جرير^(٢) : أى وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها ، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء . قال الشهاب : وإنما أعيد الجار ، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبي ﷺ ، فإن ذنوبهم معاص كباثر وصغائر ، وذنبه ترك الأولى .

وقال السيوطي : استدل بالآية من أجاز الصغار على الأنبياء . انتهى .
والمسألة مبسوسة بأقوالها ، وما لها وما عليها في (الفصل) لابن حزم . فارجع إليه .
وفي الصحيح^(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي

(١) انظر الصفحة رقم ٥٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه البخاري في: ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٦٠ - باب قول النبي ﷺ (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت) حديث رقم ٢٤٠٤ ، عن أبي موسى الأشعري .

في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطايي وعمدي ، وكل ذلك عندي .

وفي الصحيح^(١) أنه كان يقول في آخر الصلاة : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني . أنت إلهي لا إله إلا أنت . وفي الصحيح^(٢) أنه قال : يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » أي متصرفكم فيما تنصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » أي تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار . « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ » أي مبينة لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً ، « وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ » أي الأمر بقتال المشركين « رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أي : شك في الدين وضعف في اليقين « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذي لا يطرف بصره

(١) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجد ، ١ - باب التهجد بالليل ، حديث رقم ٦١٣ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣ - باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ، حديث ٢٣٩٠ ، عن أبي هريرة .

« فَأُولَىٰ لَهُمْ » قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعيّ إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قرّب بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أي : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولي ، بمعنى القرب . وقال أبو عليّ : إنه اسم تفضيل من الويل . والأصل (أويل) فقلب ، فوزنه أفلع . وردّ بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فعلى ، من آل يؤول . وقال الرضى : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ و (لهم) خبره . وقد سمع فيه (أولاة) بقاء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمي بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ، لأنه سمع فيه (أولاة) معرباً مرفوعاً ، ولو كان اسم فعل بنى . وفيه أنه لا مانع من كون (أولاة) لفظاً آخر بمعناه ، فلا يرد شيء منه عليهم أصلاً ، كما جاء (أول) أفعل تفضيل ، واسم ظرف ك (قبل) وسمع فيه (أولّة) - كما نقله أبو حيان - فلا يرد النقض به كما لا يخفى . انتهى . قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدها - أنه مبتدأ ، و (لهم) خبره ، تقديره : فاهلاك لهم .

والثاني - أنه خبر مبتدأ مضمّر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أى أقرب وأدنى ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أى أولى وأحقّ بهم .

الثالث - أنه مبتدأ ، و (لهم) متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، و (طاعة) خبره ، والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى

[٢١] (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » فيه أوجه :

أحدها - أنه خبر (أولى) على ما تقدم .

الثاني - أنها صفة السورة . أى : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أى : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكّي وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث - أنها مبتدأ ، و (قول) عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرها . وقدره مكّي : منا طاعة ، فقدّره مقدماً .

الرابع - أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أى أمرنا طاعة .

الخامس - أن (لهم) خبر مقدم و (طاعة) مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل - أفاده السمين - .

« فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ » أى : جدّ الحال ، وحضر القتال : قال أبو السعود : أسند العزم ، وهو الجد ، إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما فى قوله ^(١) تعالى (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وعامل الظرف محذوف . أى خالفوا وتحلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى « فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ » على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام ، فلو جئتني لأطعمتك . أى : فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام النبىء عن الحرص على الجهاد ، بالجرى على موجب « لَكَانَ » أى الصدق « خَيْرًا لَهُمْ » أى فى عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . وقيل : فلو صدقوه فى الإيمان ، وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم . وأياً ما كان ، فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ)

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقم أحكام كتابه ، وما جاء به رسوله « أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » أى بالتغاور والتناهب « وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ »

أى تمودوا لما كنتم عليه فى جاهلييتكم من التشنت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح فى الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث فى صلة الرحم لباب اللباب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ) «أُولَٰئِكَ» إشارة إلى المذكورين «الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ» أى عن استماع الحق لتصامتهم عنه بسوء اختيارهم «وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ» أى لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا) «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا» قال ابن جرير^(١) : أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواضع الله التى يعظم بها فى آى القرآن الذى أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون فى حججه التى بينها لهم فى تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون . «أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا» أى فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتفكير (القلوب) للإشعار بفرط جهالتها ونكرها ، كأنها مبهمه منكورة . و (الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة ، إذ لا يمكن فتحها أبداً .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ)

«إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ» أى عادوا لما كانوا عليه من الكفر «مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ» أى الحق بوضح الحجة .
«الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ» أى زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه «وَأَمْلَىٰ لَهُمْ» أى ومد لهم فى الآمال والأمانى ، أو أمهلهم الله تعالى ، فد فى آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى : الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)

«ذَٰلِكَ» إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، «بِأَنَّهُمْ» أى بسبب أنهم «قَالُوا» أى المنافقون «لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ» أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ «سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» أى بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والنظاها على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى (١)
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَیْنٌ أَخْرَجْتُمُ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِیكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوَّةٌ لَّنَا لَنَنْصُرَنَّكُمْ) وهم بنو قریظة والنضیر الذین كانوا یوالونهم ویوادونهم .

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ» أى : إخفاءهم لما یقولونه لليهود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)

[٢٨] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ)

« فَكَيفَ » أى : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم « إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » أى : التى ولوها عن الله إلى أعدائه « وَأَدْبَارَهُمْ » أى التى ولوها عن الأعداء إلى الله .

« ذَلِكَ » أى التوفى المائل « بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ » أى من إطاعة أعدائه ، « وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ » أى فى معاداتهم ، فأدى بهم إلى الردة « فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ » أى التى كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين « أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » أى أحقادهم لرسوله والمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ،

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

[٣١] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ

أَخْبَارَكُمْ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ » أى لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية

« فَلَمَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ » أى بعلامتهم التى نسميهم بها « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » أى أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به .

قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ » أى فيجازيكم بحسب قصدكم .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ » أى أهل المجاهدة فى سبيل الله ، والصبر على المشاق « وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ » أى أفانين أقوالكم ، وضروب بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم فى نشر الحق والصدع به والدأب عليه ، هل هو متمحض لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم .

قال القاشانى : علم الله تعالى قسبان : سابق على معلوماته إجمالاً فى لوح القضاء ، وتفصيلاً فى لوح القدر ، وتابع إياها فى المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس السماوية الجزئية . فعنى (حَتَّىٰ نَعْلَمَ) حتى يظهر علمنا التفصيلي فى المظاهر الملكوتية والإنسية ، التى يثبت بها الجزاء - والله أعلم - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ أَعْمَلُهُمْ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ أَعْمَلُهُمْ » أى فتذهب سدى ، لا تنمر لهم نفعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ)

[٣٤] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)

« بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ *
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ »
أى لكن يعذبهم ويماقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَغْمَلَكُمْ)

« فَلَا تَهِنُوا » أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم ، وصدوا عن سبيل الله ، « وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ » أى الصلح والمسالمة « وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ » أى الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لامتدح عنه ، ماتيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه « وَاللَّهُ مَعَكُمْ » أى بنصره مانعكم بحبله « وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَغْمَلَكُمْ » أى لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ)

« إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ » أى فلا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك الجهاد « وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ » أى ثواب إيمانكم وتقواكم « وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ » أى لأنه غنى عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبذ الأوثان ، والطاعة لما أمر به ، ونهى عنه .

قال بعض المفسرين : أى لا يسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم ، وهو معطوف على الجزاء . والمعنى : إن تؤمنوا لا يسألكم الجميع ، أى : لا يأخذ منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابلته لقوله (يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ) أى يعطىكم كل الأجور ، ويسألكم بعض المال - هذا ما قاله الشهاب - .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده ، وأن طلب إتيان الأموال منهم ، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن فى الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم ، وفى بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته فى عدم سؤاله إتيان أموالهم كلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْلُكُمْ)

« إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ تَبَخَّلُوا » أى فيجهدكم بالمسألة ، ويألم عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضناً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم ، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشري : الإحشاء المبالغة ، وبلوغ الغاية فى كل شيء . يقال (أحفاه فى المسألة) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح . و (أحفى شاربه) إذا استأصله .

« وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ » أى أحقادكم ، وكراحتكم لدين يذهب بأموالكم . وضمير (يخرج) لله تعالى ، ويعضده القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأضغان . وقرئ (يخرج) من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأضغان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (هَآأَنتُمْ هَآؤَآءٌ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّنْ مِّنْ يَّبْخُلُ ،
وَمَن يَّبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ، وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ،
وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ)

« هَآأَنتُمْ هَآؤَآءٌ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى فى جهاد أعدائه، ونصرة دينه « فَمِمَّنْ مِّنْ يَّبْخُلُ » أى بالنفقة فيه . « وَمَن يَّبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ » أى يسكه عنها ، لأنه يحرمها الأجر ، ويكسبها الوزر « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ » أى : عن كل ما سواه ، وكل شىء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه « وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ » أى بالذات إليه . فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لا ينفكون عنه ، أى وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم فى النفقة فى سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيل من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل مافيه نفع وخير، وفائدة وقربة ومثوبة. وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرد الأثمة ، وجزئية الأثم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينحصر فيه . « وَإِن تَتَوَلَّوْا » أى عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم « يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى يهلككم ثم يأتى بقوم آخرين غيركم ، بدلاً منكم ، يؤمنون به ، ويعملون بشرائعه . « ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ » أى لا يخلوا بما أمروا به من النفقة فى سبيل الله ، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على ما يؤمرون به .